ملاحظات اولية حول الايديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها وأصولها المجتمعية

أ. ن. سعد

من الشائع تقديم الصهيونية وكأنها حركة قومية نشأت عفويا في اوساط جماهير اليهود في اوروبة الشرقية واجتاحت مخيلاتهم عند نهاية القرن الماضي فاندفعوا الى فلسطين لبناء كيان ذي مضمون مجتمعي تقدمي اشتراكي . والالتباس الذي رافق دراسة وفهم العقيدة الصهيونية عامة يعود لوجود تيار يساري اشتراكي داخل الحركة الصهيونية لعب دورا هاما في تثبيت نموها في فلسطين ومن ثم في اسرائيل . فرغم وضوح واقع نشأة الصهيونية ونموها تحت اجنحة الامبريالية البريطانية نهج زعماء الحركة الصهيونية وبشكل دائم في ابراز هذا الوجه التقدمي المزعوم لحركتهم . وكان لتصدي الصهيونية لبريطانية في اواخر الاربعينات ، او بالاحرى ، محاولة بريطانية الوقوف في وجه تزايد النمو الصهيوني في ظل الظروف المؤاتية لها في ذلك الحين ، اثر في الفهم الخاطىء لحقيقة القوى التي خلقت الحركة ورعت نموها ، علما بان النتيجة الرئيسية لاحداث تلك الفترة كانت استبدال الوجود البريطاني بالنفوذ الامبريالي الاميركي ، مما نم في الحقيقة عن تعميق روابط اسرائيل مع الامبريالية في الوقت الحاضر . ولم يكن للسقوط اللاحق للانظمة العربية الدائرة في فلك بريطانية — الامر الذي أدى الى مجابهة محدودة بين الامبريالية وانظمة المساومة العربية التي جاءت في اعقاب ذلك في الخمسينات والستينات — سوى تأثير سطحي على فهم طبيعة المسألة الصهيونية . الا ان ظهور حركة شعبية في صفوف الجماهير الفلسطينية العربية وفي اوساط بعض المثقفين اليساريين الاسرائيليين معادية تماما للامبريالية والصهيونية هو ما اعاد طرح مسألة الصهيونية بالشكل الذي نشهده اليوم .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان بعض دارسي الصهيونية الذين يعترفون بالتقاء سياسات اسرائيل مع مصالح الامبريالية يدعون ان هذا الالتقاء ظاهرة عرضية تنتج عن المتطلبات الفورية للدفاع عن اسرائيل بوجه التهديدات العربية لها ولا ينم عن انعكاس اساسي لطبيعة الصهيونية . ولكن نظرة نقدية في طبيعة الصهيونية حرية بان تبرز عنصر المغالطة الوارد في هذا الادعاء وبانه ليس سوى تعبير عن منهج تبريري في طرح المسألة . وستظهر هذه المقالة ان الصهيونية ، بتراثها الطويل في خدمة الامبريالية ، لم تلق تأييد الامبريالية لها نتيجة لاهداف الاخيرة في الهيمنة على منطقة الشرق الاوسط فحسب ، بل واهم من ذلك ، ارتكز اهتمامها في ظرف الصراعات المجتمعية القائمة في اوروبة نفسها .

يظهر تحليل الظروف المجتمعية التي خرجت عنها الصهيونية ان التبني الامبريالي للحركة كان نتيجة حتمية لطبيعة الحركة نفسها مع ما كمن وراءه من تناسق مبدئي مع ايديولوجيتها . فالدوافع المجتمعية للممولين من وجهاء البورجوازية اليهودية الذين كانوا الاوائل في تبني الصهيونية لم تنطو عن اي تعلق خاص بالشعور « التوراتي » القومي